3021

أسباب ظهور الاتّجاهات المنحرفة في التفسير، القديمة منها والحديثة

محمد أحمد

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية المعاصرة، جامعة سلطان زين العابدين كوالا ترينجانو، ماليزيا.

+60164747915 Ibnahmad2011@gmail.com

ملخص البحث:

إن الاهتمام بالقرآن وتفسيره مظهر من أهم مظاهر الاهتمام بالإسلام، ومنذ عصر الأول للإسلام بدأت مكتبة التفسير تزداد غنى وتضخماً، حتى أصبح القارئ اليوم يجد نفسه في حيرة أمام هذه الكتب ومناهجها، فلا يكاد يسلم له اختيار، ولا تستقيم له قراءة، إذا لم يبذل جهداً كبيراً في اختيار الكتاب والكاتب، فهنا تكمن مشكلة هذا البحث المتواضع، في بيان مراحل التي مر عليها علم التفسير، وبيان أسباب ظهور الانحرافات القديمة والحيدثة في التفسير، وهل من الممكن معرفة هذه الأسباب، وهل هذه الانحرفات تأثر في التفسير، وما هي أهم الفرق التي اشتهرت في التحريف في تفسير القرآن، وهذا ما يهدف أن يكشفه هذا البحث، فقد سلك الطالب المنهج الاستقرائي في انجاز هذا البحث، ومن أهم النتائج التي توصل إليها أن التفسير مر بمرحل ستة، وأن أعظم دافع لوجود الانحرافات في التفسير هو حذف الإسناد في التفسير، وأن القرآن الكريم بريء عن هذه الانحرافات برمتها، وذلك لأن الله وعد بحفظه وصيانته، فالله لا يخلف الميعاد.

الكلمات الافتتاحية: *أسباب، ظهور، الاتجهات، المنحرفة، القديمة، الحديثة.*

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على علده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أنزل الله إليه كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وعلى آله وصحبه الذين أنقذهم الله من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام بالقرآن، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

إن من أشرف العلوم وأعظمها على الإطلاق علم التفسير؛ وذلك لتعلقه بأشرف كتاب أنزل، فقد مر على التفسير عدة مرحل حتى نضج وقام على قدميه واستوى على ساقيه، ثم بدأت الانحرافات تتسرب إليه شيئا فشيئا حتى كثرت وأصبح من الصعب

تمييز الصحيح من العليل، لذلك قام كثير من العلماء ليذبوا هذه الانحرافات عن كتاب ربنا تصديقا لوعده في حفظ كتابه ولو كره المبطلون، وهذا ما دفع الطالب إلى اختيار هذا الموضوع: (**أسباب ظهور الاتّجاهات المنحرفة في التفسير، القديمة منها والحديثة**) رجيا من الله أن يجعلني من الذين يدافعون عن كتابه، المبعوثين يوم القيامة تحت لوائه إنه قريب مجيب.

مشكلة البحث:

تظهر مشكلة هذا البحث المتواضع في بيان المراحل التي مر عليها علم التفسير والانحرافات المخترعة في علم التفسير.

1- متى بدأ ظهور هذه الانحرافات؟

2- وما هي أشهر الفرق المنحرفة في علم التفسير؟

3- وهل هذه الانحرفات تقدح في القرآن؟

4- وكيف صدق الله وعده لحفظ كتابه العزيز؟

منهج البحث:

1- لقد سلك الطالب لإنجاز هذا البحث المتواضع المنهج الاستقرائي.

2- وأيضا بما أن البحث محدود الصفحاص لقد فصلت القول في المطلب الثاني (أسباب ظهور الانحرافات القديمة في التفسير) عن مذهب واحد فقط، وتحدثت عن بقية المذاهب إجمالا خوفا من الإطالة.

هيكل البحث:

هذا البحث مقسم إلى مقدمة، وثلاثة مطالب، ثم الخاتمة، أما المقدمة فتحتوي على سبب اختيار الموضوع، مشكلة البحث، ثم منهج البحث.

والمطلب الأول: مراحل التي مر عليها علم التفسير.

والمطلب الثاني: أسباب ظهور الانحرافات القديمة في التفسير.

والمطلب الثالث: أسباب ظهور الانحرافات الحديثة في التفسير.

ثم الخاتمة: وتحتها أهم نتائج البحث، ثم قائمة المراجع.

المطلب الأول: المراحل التي مر عليها علم التفسير:

لقد مر على التفسير ستة مراحل وهي كالآتي:

المرحلة الأولى للتفسير: أو التفسير فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه:

لقد أنزل الله القرآن على نبي أمي، وقوم أميين، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، وكان كلامهم مشتملا على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، فوافقهم القرآن على فنونهم وأساليبهم في كلامهم، غير أن القرآن قد على غيره من الكلام العربي، وذلك لكونه من لدن حكيم عليم، لذلك طان من الطبيعي أن يفهم النبي القرآن جملة وتفصيلا، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان، فقال جل من قائل: [لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [1]]، كما كان طبيعيا أن يفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في جملته لكون القرآن نزل بلغتهم، لكنهم ليسوا على درجة واحدة من الفهم بل تفاوتت مراتبهم منهم المكثر والمقل، وأما فهمه تفصيلا ومعرفة دقائقه فلا بد من الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبين لهم فيما يشكل عليهم فهمه[2].

المرحلة الثانية للتفسير: أو التفسير في عصر التدوين:

فهذه المرحلة بدأت مع ابتداء التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت أبواب الحديث متنوعة، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب، ولم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، بل وجد من العلماء من طوف في البلاد ليجمع الحديث، فجمع بجواره ما ثبت من التفسير المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو إلى الصحابة رضوان الله عليهم، أو التابعين[3].

المرحلة الثالثة في التفسير:

1 القيامة: 16 -19.

2 – انظر الذهبي، التفسير والمفسرون، ج: 1، ص: 5.

3 – الذهبي الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها، ص: 13 -14.

ثم خطى التفسير إلى خطوة أخرى، وفيها انفصل التفسير عن الحديث، وأصبح علما قائما بنفسه، فوضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف الشريف، وقد تم هذا العمل الجبار على أيدي جماعة من العلماء، منهم: ابن ماجة المتوفى: 273 هـ، وابن جرير الطبري، المتوفى: 310 هـ، وابن أبي حاتم، المتوفى: 327 هـ، لكن كل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولا يذكرون في التفسير أكثر من التفسير المأثور، إلا ابن جرير الطبري؛ فإنه ذكر الأقوال، ثم وجهها ورجح بعضها على بعض، وزاد على ذلك الاعراب إن دعت الحاجة إلى ذلك، وكذلك استنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من النص القرآني[4].

المرحلة الرابعة للتفسير:

وفي هذه المرحلة أيضا لم يخرج التفسير عن حدود التفسير بالمأثور، ولكنه خرج عن طابعه المألوف من قبل، وهو تدوين المأثورات بأسانيدها، فوجد من العلماء من اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن يسندوها لقائليها، ففي هذه الخطوة دخل الوضع في التفسير، والتبس الصحيح بالعليل، وتطرق الروايات الإسرائيليات في التفسير[5].

المرحلة الخامسة للتفسير:

بدأت هذه المرحلة من العصر العبسي إلى يومن هذا، وفي هذه المرحلة خطى التفسير أوسع الخطا وأفسحها، فبعد أن كان التفسير مقصورا على الرواية والنقل، أصبح مختلطا بالفهم العقلي، وقد بدأ أولا على هيئة محاولات فهم شخصي وترجيح بعض الأقوال على بعض، ثم ظلت هذه المحاولات تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، وغلب الجانب العقلي على الجانب النقلي، وصار أظهر شيء في هذه الكتب هو الناحية العقلية، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم[6].

المرحلة السادسة للتفسير:

4 – الذهبي الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها، ص: 14.

5 – الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، للدكتور رمزي نعناعة. ص: 19 – 20.

6 – المرجع السابق، ص: 20.

وفي هذه الخطوة ظهر نوع آخر من التفسير، وهو التفسير الموضوعي، فهناك من العلماء من ضيق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحي القرآن المتعددة، كابن القيم مثلا، أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن، مساه: (التبيان في أقسام القرآن) وأبو عبيدة أفرد كتابا عن مجاز القرآ، والراغب الأصبحاني أفرد كتابا في مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس أفرد كتابا في الناسخ والمنسوخ، وغيرهم كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن، يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث[7].

المطلب الثاني: أسباب ظهور الانحرافات القديمة في التفسير:

أولاً :مبدأ ظهور الاتجاهات المنحرفة في التفسير والعوامل التي أدت إلى ذلك قديما:

ظهور الاتجاهات المنحرفة في التفسير كان متزامناً مع مرحلتين من مراحل تدوين التفسير: 1- مرحلة حذف الأسانيد، ولا شك أن حذف الأسانيد في مراحل التدوين الأولى فتح على المسلمين باب شر عظيم، حيث مكّن من تسرب الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، واستغله أصحاب المذاهب السياسية، والبدع العقدية، وغيرهم من أصحاب الأهواء والنزعات المنحرفة كثيراً بوضع أقوال نسبوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى بعض من اشتهر بالتفسير من الصحابة كذباً وزوراً، وذلك ترويجاً لمذاهبهم وتمكيناً لبدعهم، ثم جاء من بعدهم من نقلها مع غيرها من صحيح التفسير دون تمييز أو تحقيق، ودون أن يذكروا أسانيدها، فاغتر بها كثير من الناس وظنوا كل ما في تفاسيرهم صحيحا[8].

2 – والمرحلة الثانية التي تزامن معها ظهور الانحرافات في التفسير: هي المرحلة التي انتشر فيها التفسير بالرأي، وتغليب العقل والمذهب، حيث أدى التوسع في ذلك بعيداً عن الضوابط الصحيحة إلى إخضاع التفسير للميول الشخصية، والمذاهب العقدية وغير العقدية، ولا سيما بعد أن اقتحمه غير المؤهلين له بنظراتهم الكليلة، وعقولهم العليلة، ثم خرجوا على الناس بعبثهم وسخافاتهم التي يبرأ منها كتاب الله عز وجل، والأسباب التي تؤدي إلى الانحراف والخطأ في التفسير بالرأي ترجع إلى عاملين رئيسين، وهما:

العامل الأول: يعتقد المفسّر معنى من المعاني، ثم يحاول حمل ألفاظ القرآن على ما اعتقده.

7 – كتاب طبقات المفسيرين ومناهجهم لجامعة المدينة العالمية في ماليزيا قسم الماجستير، ص: 373 – 374.

8 – الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها، لفضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي، ص: 18.

العامل الثاني: وهو تفسير القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه إن كان من الناطقين بلغة العرب، وذلك بدون النظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به[9].

ومن أهم الفرق والجماعات التي انحرفت عن طريق الحق في التفسير في القديم ما يأتي:

1- الاخباريين والقصاص.
2- المعتزلة.
3- الصوفية.
4- المذاهب النحوية.
5- الخوارج.
6- أصحاب التفسير العلمي.
7- الشيعة.

موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم:

إذا نحن أجلنا النظر في مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام في الرأى والعقيدة، فبينا نجد الغلاة الذين رفعوا علياً إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون علياً أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق بالولاية وأولى بها من غيره فحسب، ونجد مَن يقف موقفاً وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هو يؤلِّه علياً، ولا هو يرى أنه بشر يُخطيء ويُصيب، بل يرى أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منازع ولا مدافع وإن غُلب على أمره واعتُصِبَت الولاية منه، ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزبين أو ثلاثة، بل تفرَّقت بهم الأهواء إلى حد الكثرة في التحزب، وكل حزب من هذه الأحزاب يَدَّعي الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو في الجملة – أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهداً له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلاً على مذهبه تمسك به، وأخذ في إقام مذهبه على دعامة منه. وما وجده مخالفاً لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقاً لا مخالفاً، وإن أدى هذا كله إلى خروج اللفظ القرآني عن معناه الذي وُضِعَ له وسِيقَ من أجله، فصار هذا من أعظم ظهور الاتجاهات المنحرفة في التفسير[10].

9 – المرجع السابق، ص: 19 20.

10 – التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي، ج:1، ص: 132.

والمطلب الثالث: أسباب ظهور الانحرافات الحديثة في التفسير:

لقد ظهر فى هذا العصر أشخاص يتأوَّلون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات فى نفوسهم، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبَّلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة، ورفضها بكل إباء مَن حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

الباعث على هذا اللَّون من التفسير:

– اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائغة فى القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم مَن حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسِّرين ويرميهم جميعاً بالسفه والغفلة ثم طلع على الناس بجديده فى تفسير كتاب الله، جديد لا تقره لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين.

– ومنهم مَن تلقَّى من العلم حظاً يسيراً، ونصيباً قليلاً، لا يرقى به إلى مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين فى العلم، ونسى أنه قَلَّ فى علم اللُّغة نصيبه، وخف فى علم الشريعة وزنه، فراح ينظر فى كتاب الله نظرة حُرَّة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذى بأفهام فاسدة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللُّغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلى حُجَّة، ولا تتكئ على دليل.

– ومنهم من لم يرسم لنفسه نِحْلَة دينية، ولم يسر على عقيدة معروفة، ولكنه لعبت برأسه الغواية، وتسلَّطت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نِحَلٍ مختلفة، فانطلق إلى القرآن وهو يحمل فى قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يُؤوِّله بما يتفق معها، تأويلاً لا يقره العقل ولا يرضاه الدين، هؤلاء جميعاً خاضوا فى القرآن على عماية، فلم يراعوا فى فهمه قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلى تفسيره من باب السُّنَّة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأي الطليق[11].

ومن المتجددين أيضا من دفعه حب التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد، ويتهم الشريعة الإسلامية بالقسوة فى أحكامها وحدودها، فراح يتأوَّل آيات الحدود بما يوافق هواه وهوى أصحابه، فحمل الأمر فيها على الإباحة .. وجعل الأمر فى ذلك مُفوَّضاً إلى رأى ولى الأمر وحده،وأنكر بعضهم وجود عالَم الجن، وتأوَّل ما جاء من ذلك صريحاً فى آيات القرآن الكريم، ففسَّر قوله تعالى فى أول سورة الجن: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}[12] .... الآية، بأن الجن قبيلة من العرب، وهذا تأويل ينافى صريح القرآن فى مواضع كثيرة، فضلاً عن أنه لا يقوم على دليل يصححه[13].

---

11 – الذهبي، التفسير والمفسرون، ج: 5، ص: 15، في المكتبة الشاملة غير موافق للمطبوع.

12 – سورة الجن: 1.

13 – الذهبي، التفسير والمفسرون، ج: 5، ص: 17 – 19.

الخاتمة:

وختاما أحمد الله سبحانه وتعالى الذي من علي بإكمال هذا البحث المتواضع، ومن أهم النتائج التي وصلت إليها من خلال هذا البحث ما يأتي:

1- أن التفسير مر بمرحل ستة.
2- وأن أعظم دافع لوجود الانحرافات في التفسير هو حذف الإسناد في التفسير.
3- وأن القرآن الكريم بريء عن هذه الانحرافات برمتها، وذلك لأن الله وعد بحفظه وصيانته، فالله لا يخلف الميعاد.
4- وأن من أهم الفرق التي انحرفت في التفسير: الشيعة، والمعتزلة، والخوارج، والصوفية، وغيرهم.
5- إن أعظم المنحرفين في عصر الحديث هم أصحاب التجديد، بحيث يستدلون بشمول القرآن لكل شيء.

وأخيرا أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يتقبل مني هذا الجهد المقل، وأن يغفر لنا ولوالدينا، وأخص بالشكر والتقدير محاضر هذا المساق، مشرفي المحبوب، فضيلة الأستاذ المساعد الدكتور باي زكوب عبد العالي، فالله أسأل أن يجزيه خير الجزاء، وأن يغفر له ولوالديه، وأن يطيل بقائه في خدمة الإسلام والمسلمين، وسائر أساتذتنا الأجلاء، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قائمة المراجع:

1- القرآن الكريم.
2- الذهبي، الدكتور محمد حسين، التفسير والمفسرون.
3- الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها، للدكتور محمد حسين الذهبي.
4- الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، للدكتور رمزي نعناعة.
5- كتاب مادة طبقات المفسيرين ومناهجهم، لجامعة المدينة العالمية ماليزيا قسم الماجستير.